مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

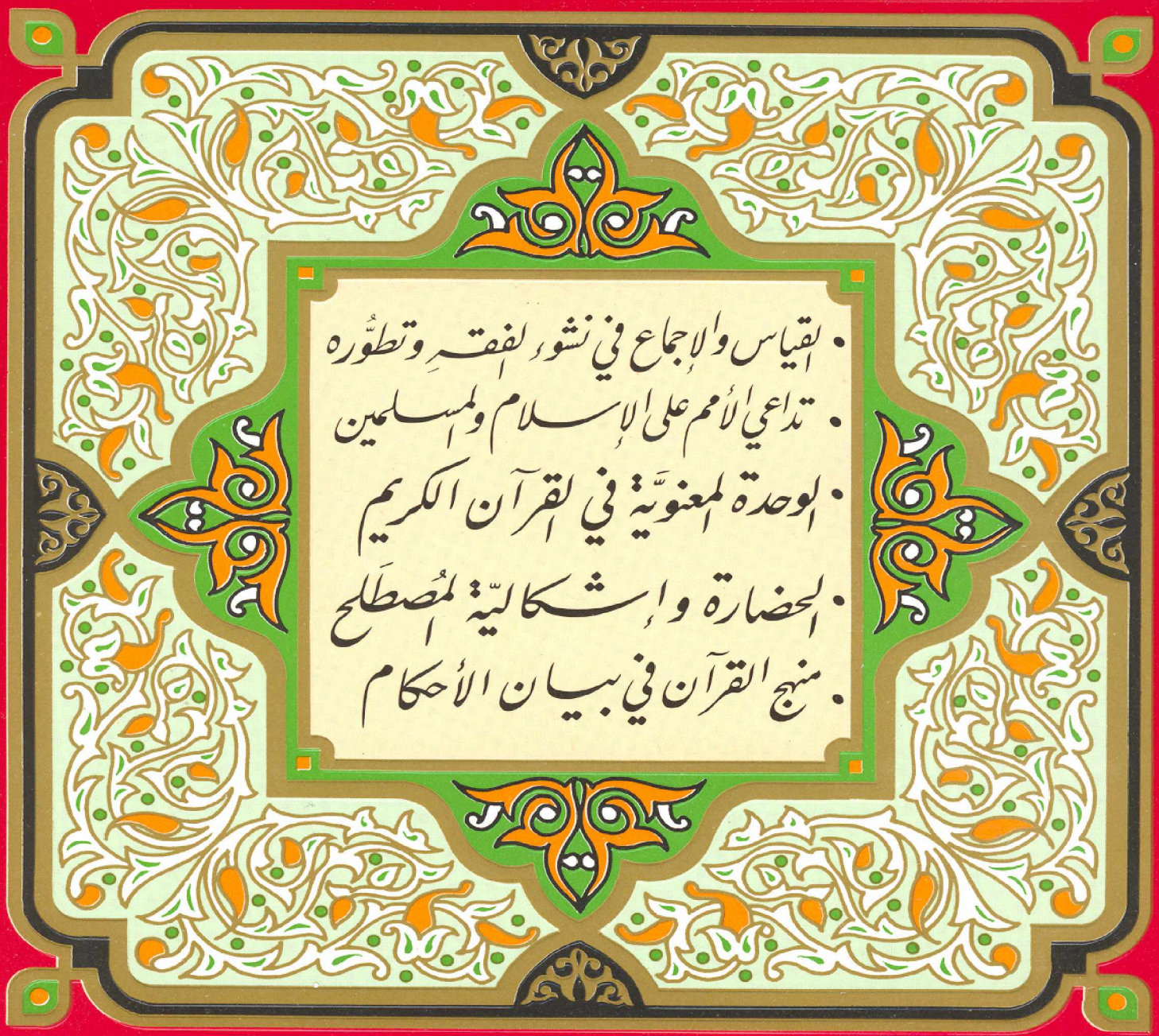

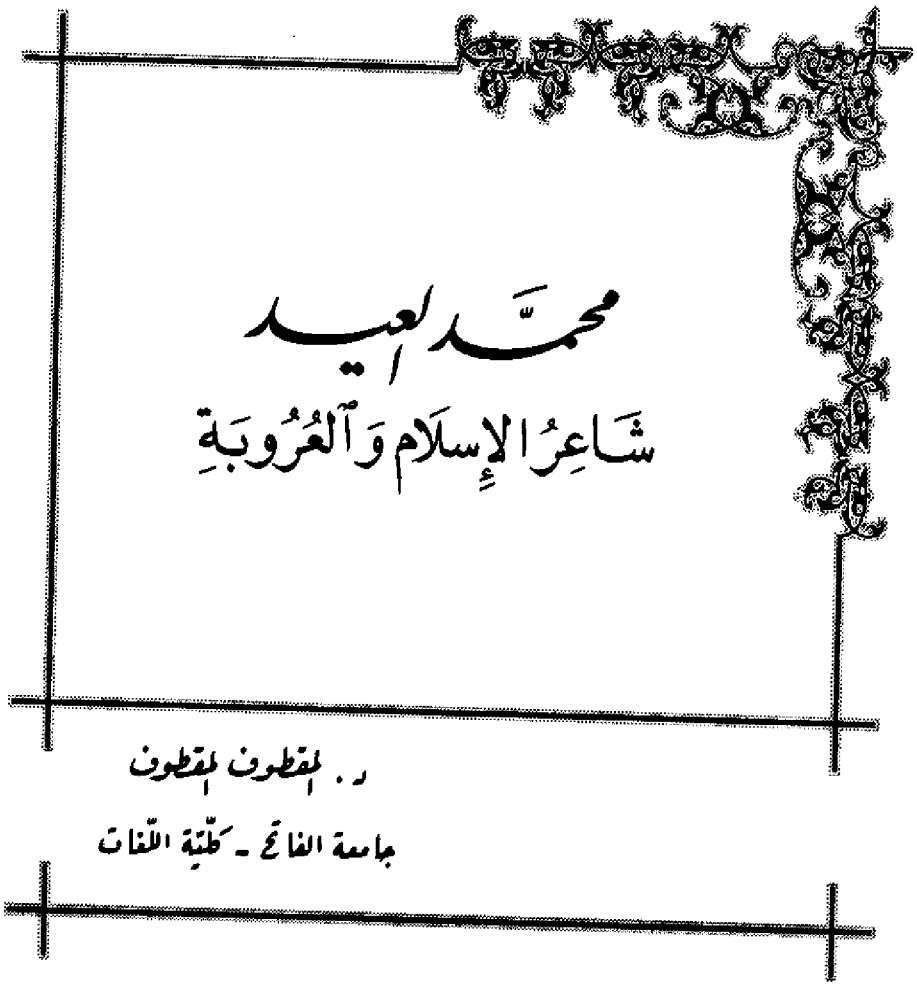

محمد العيد
شاعر الإسلام والعروبة

د. لمقطوف لمقطوف
جامعة الفاتح ـ كلّيّة اللّغات

1 ـ تقديم:

للجزائر مكانتها التاريخية، ولها أعلامها في العلم، والأدب، والإصلاح، قديماً وحديثاً، وقد كان لهم فضل كبير في المحافظة على الثقافة العربية في الجزائر، وعلى الشخصية العربيّة التي عمل الاستعمار الفرنسي على القضاء على جميع مقوماتها، من دين، ولغة، وعروبة وغيرها من المقومات التي تربطها بأبناء العروبة والإسلام.

ومن أولئك الأعلام الشاعر والأديب والمصلح الثائر محمد العيد آل خليفة

شاعر الشمال الإفريقي بلا منازع[1].

سخّر ذلك الشاعر كل طاقاته الفكرية والأدبية لخدمة الجزائر، والإسلام والعروبة، فكان شاعرها حقاً.

تشهد بذلك آثاره الشعرية، ومواقفه الوطنية الجريئة.

ويعد شعره سجلاً حافلاً بمظاهر النهضة الأدبية والعلمية الحديثة في الجزائر، وبسبب كل هذه الاعتبارات آثرته موضوعاً لهذا البحث الوجيز الذي ستتجلى من خلاله تلك الجوانب التي أشرت إليها، كما ستتضح للقارىء مكانة ذلكم الشاعر العظيم[2].

ونظراً لمكانته الأدبية فقد لقب بألقاب أدبية متنوعة، توحي بما يحظى به شخصه وفنه الشعري من تقدير من قبل أعلام الجزائر وكبار أدبائها مثل العلامة المجاهد محمد البشير الإبراهيمي[3] ـ رحمه الله ـ.

وقال ذلكم الأديب الكاتب عن محمد العيد ما نصه:

«محمد العيد شاعر الشباب، وشاعر الجزائر الفتاة، بل شاعر الشمال الإفريقي بلا منازع، شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن، رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللمحة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسج، مترقرق القوافي، لبق في تصريف

---

(1) من مواليد 1904 من بلدة (العين البيضاء، شرقي الجزائر، وهو شاعر الحركة الإصلاحية في الجزائر، توفي بمدينة بسكرة 1975 ـ رحمه الله ـ.
انظر: محمد العيد آل خليفة، أبو القاسم سعد الله، (دار المعارف بمصر)، ط2، 1975ف، وفي رحاب المغرب العربي، صالح خرفى (دار الغرب الإسلامي)، بيروت ـ لبنان ط1، 1985ف. والمدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، نسيب نشاوي، (دمشق) 1980ف. وتاريخ الشعر العربي الحديث، أحمد قبش (لاط)، 1971ف.

(2) انظر: مجلة «الأصالة»، العدد (11) السنة الثانية، مقال: (دراسة حول ديوان محمد العيد)، محمد رشدي حسن، (نوفمبر ـ ديسمبر سنة 1972ف.

(3) من مواليد 1889ف بالجزائر، وهو رئيس جمعية العلماء الجزائريين، توفي 21/ 5/ 1965ف. انظر: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، نور سلمان، ص: 533 ـ 534.

الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللغة علماً وعملاً. . .»[4].

وهو ـ كذلك ـ «حسَّان الدعوة الإصلاحية»[5]، و«أمير شعراء الجزائر»[6].

وما هذه الألقاب الأدبية التي تحلَّى بها محمد العيد إلا دليل على صدق وطنيته، وقوة شاعريته، وقيمة شعره وقوة تأثيره.

لقد كان محمد العيد شاعراً عربياً مسلماً، وطنياً مخلصاً، مؤمناً بأمجاد العروبة والإسلام مستمسكاً بقيمها الفاضلة داعياً إلى التحلِّي بها في شعره في مختلفِ المناسبات، فكان شعره ترجماناً أميناً لخواطره وإحساسه، فهو كما قال:

جعلت الشعر في الدنيا نَجِيتّي ... فكان لخاطري كالترجمان

ولم أكفف عن استنهاض شعبي ... به لأراه في أعلى مكان[7]

نعم حرض الشاعر محمد العيد بشعره على الثورة مراراً وتكراراً، تصريحاً، وتلميحاً، يوم «كانت كلمة الثورة بلفظها المفرد كافية لنزول العقاب الأليم بلافظها قبل أن يتم تركيب الجملة»[8].

فلنستمع إليه وهو يقول بصوت قوى داعياً إلى الثورة:

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض ... بلا مهل فقد طال القعود

وقل يا ابن البلاد لكل لص ... تجلَّى الصبح وانتبه الرقود

فخض يا ابن الجزائر في المنايا ... تظللك البنود أو اللحود[9]

---

(4) مجلة «الشهاب». لابن باديس، ج4، المجلد: 14 (يونيو ـ يوليو)، ص: 268.

(5) ديوان محمد العيد، (منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة البعث ـ قسنطينة 1967ف، ص: 142 بالحاشية.

(6) نفس المصدر، ص: 548.

(7) ديوان محمد العيد، ص: 1 بعد المقدمة.

(8) محمد العيد آل خليفة، أبو القاسم سعد الله، ص: 10.

(9) الديوان، ص: 304، 305.

نعم قال محمد العيد هذا وأكثر من هذا، وفي ديوانه الخبر اليقين.

وإذا كنت قد أسبغت عليه بعض النعوت فذاك تقدير مني لمواقفه وشعره الذي يمثل تجربة شعورية صادقة والتزاماً ذاتياً بالنضال في سبيل الإسلام والعروبة.

وما أثنيت إلا بعد علم وكم من جاهل أثنى فعابا

ومن خلال قراءتي ديوان ذلك الشاعر ارتسم في ذهني أنه كان كثير الدعوة إلى الاستمساك بالدين الإسلامي، والإشادة بأمجاد العروبة، وقيمها، وتاريخها، مستهدفاً بذلك تعريف أبناء الجزائر وبناتها بتاريخ هذه الأمة التي أنجبت العظماء قديماً وحديثاً، الذين أسهموا في الحضارة الإنسانية في شتى المجالات.

وبمعرفة ذلك يحافظون على شخصيتهم الجزائرية المصبوغة بصبغين زاهيين ـ عبر العصور ـ هما: العروبة والإسلام كما قال ابن باديس[10]:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

وهو أيضاً كثير التغني بالجزائر الحبيبة التي وهبها روحه وما ملكت يداه، فهو القائل:

ولي وطن حبيب لي خصيب وقفت على محاسنه هوايا
وكنت له من الأحرار عبداً له روحي وما ملكت يدايا
إذا آنست من بلواه ناراً فإني قد وجدت بها هُدايا[11]

وبذلك كان العيد شاعر الإسلام والعروبة والوطنية.

2 ـ شاعريته:

وهبه الله ملكة شعرية، وإحساساً مرهفاً، وخيالاً خصيباً، وقدرة على

---

(10) هو عبد الحميد بن باديس من مواليد 1989 وكان الرئيس الأول لجمعية العلماء الجزائريين) توفي سنة 1940 ـ رحمه الله ـ. انظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس، مجموعة من الأساتذة، (دار العودة ـ بيروت) 1976، ص: 27 وما بعدها.

(11) محمد العيد آل خليفة، أبو القاسم سعد الله، ص: 271.

استخدام العربية بطريقة تدل على تمكنه منها، وذوقاً أدبياً سليماً ينم عن اختياره لمفردات شعره ونظمها بطريقة تدعو إلى الإعجاب.

تلك مجموعة من العوامل المؤثرة في شاعرية محمد العيد الذي يعد شعره سجلاً حافلاً للنهضة الجزائرية الحديثة.

وشعر محمد العيد نابع من إحساسه، معبر عن صدق إيمانه وتقواه، فهو يمثل تجربة صادقة عاشها الشاعر، وعبر عنها أصدق تعبير.

والدليل على ذلك ما قاله عنه العلامة المرحوم محمد البشير الإبراهيمي:

«ومن يعرف محمد العيد، ويعرف إيمانه وتقواه، وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره إنما هي من آثار صدق الإيمان، وصحة التخلُّق، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء، رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها القصائد الغرّ، والمقاطع الخالدة...»[12].

وفي مكان آخر قال الإبراهيمي نفسه معلقاً على قصيدة: «كن قوياً»:

«ما ينفك شاعر الجزائر الفحل الأستاذ محمد العيد آل خليفة مرهف الإحساس لما يصيب الجزائر، فياض الشعور بما يجيش في صدرها، فلا يمر يوم من أيامها إلا وكان له فيه موقف ينطق فيه بلسانها، ويسجل شعوره الخالد آلامها...»[13].

وكفى بشهادة الإبراهيمي دليلاً على تخلقه بالفضائل الإسلامية، وإحساسه بما كان يجري في الجزائر العربية.

والشعر عند محمد العيد شعور سام، وخيال خصيب، وأداة فعالة لتحريك النفوس نحو المجد والفضيلة.

وما الشعر إلا شعور سما خيالاً بإيحائه الساحر

---

(12) مجلة «الشهاب» لابن باديس، ج4، المجلد: 15، (يونيو ـ يوليو) 1938ف، ص: 268.

(13) ديوان محمد العيد، ص: 322.

يـهـز الـنـفـوس بـتـيـاره ... فـتـسـمـو إلـى الأوج كـالـطـائـر
شـغـفـت بـه مـنـذ عـهـد الـصـبـا ... فـأُبـت بـعُـمْـرٍ بـه عـامـر
أذبـت عـلـيـه حـشـا مـهـجـتـي ... ومـا كَـلَّ مـن طـرفـي الـسـاهـر
وعـرضـت نـفـسـي لأخـطـاره ... بـمـا لـيـس يـعـرض بـالـخـاطـر
وقـفـت عـلـى الـشـعـب جـهـدي بـه ... وكـرسـت عـمـري إلـى الآخـر
فـديـوان شـعـري بـمـرآتـه ... جـلا غـابـرَ الـشـعـب لـلـحـاضـر[14]

وهكذا كان شعر محمد العيد مرآة صقيلة لماضي الجزائر وحاضرها، وقوة دافعة نحو التحرر والاستقلال.

ونظراً لقيمة شعره فقد كان علامة الجزائر محمد البشير الإبراهيمي ـ عليه الرحمة والرضوان ـ حريصاً كل الحرص على جمع شعر محمد العيد والتعليق عليه، والإشارة إلى المناسبات التي دفعت بالشاعر إلى التعبير عما يجيش في نفسه وفي نفس كل جزائري مخلص لدينه، ووطنه، وأمته.

وقد تحلَّت صحف جمعية العلماء كالشهاب، والبصائر، بشعر محمد العيد، فكان ذلك كالعقد في جيد الحسناء، وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد.

وقد تحدث الشاعر محمد العيد في شعره عن أغراض مختلفة يمكن الرجوع إليها في ديوانه الذي نشرته (وزارة التربية الوطنية بالجزائر) سنة 1967 فكان نشره فاتحة بعث التراث العربي الجزائري بعد الاستقلال، تقديراً لذلك الشاعر الكبير.

وقد سار الشاعر على نهج القصيدة التقليدية من حيث وحدة الوزن، والقافية، وذلك بحكم ثقافته العربية الأصيلة.

وكان طويل النفس في شعره كما يبدو ذلك في كثير من قصائده ولا سيما حوليّاته التي تعوَّد إلقاءها في «نادي الترقي».

---

(14) ديوان محمد العيد، ص: 5، 6.

وكانت له قدرة على ارتجال بعض الأبيات، وذلك دليل على قوة شاعريته، وتمكنه من هذا الفن الرفيع.

ومهما يكن الأمر فلا تسمح لي طبيعة هذا البحث الوجيز بالحديث عن شاعريته وشعره بأكثر مما أوجزت القول فيه؛ مراعاة لتلك الجوانب التي تمثل الإطارالعام للبحث، والمتمثلة في نضاله في سبيل الإسلام، والعروبة، والوطنية، التي قد يكون الحديث عنها متداخلاً في القصيدة الواحدة، تبعاً للحالة النفسية والشعورية للشاعر، ولطبيعة الموضوع نفسه.

3 ـ محمد العيد شاعر الإسلام:

من يقرأ شعر محمد العيد يستشف منه أن ذلك الشاعر جدير بأن يكون شاعر الإسلام والعروبة. والوطنية، وأنه الشاعر الثائر الذي تحدى الاستعمار الذي كان يستهدف القضاء على جميع مقومات الشخصية العربيّة الجزائرية ممثلة في الدين الإسلامي، والعروبة، واللغة العربية وغيرها من المقومات.

وكان الشاعر محمد العيد يُحسُّ بما تعانيه الجزائر من قبل المستعمرين الفرنسيين نحو دينه، ووطنه وأمته.

وبسب ذلك جند نفسه للدفاع عن الإسلام، والعروبة، ومن المعروف تاريخياً أن الشاعر كانت له علاقة وثيقة بابن باديس، والإبراهيمي، والعقبي. وهؤلاء الأعلام المصلحون الثائرون كانوا يجاهدون في سبيل الدين، والوطن، والعروبة، وتحملوا ما تحملوا من سجن، ونفي، فما ضعفوا وما استكانوا أمام أعدائهم المستعمرين.

وكان شاعرنا من أولئك الرجال يدعو في قصائده إلى الوقوف في وجه أعداء الإسلام وأذنابهم، وإلى الاستمساك بما في كتاب الله وسنة رسوله محمد ـ ﷺ ـ، ويشيد برجالات الإسلام ومواقفهم الثابتة؛ لأخذ العبرة من تلك المواقف التي سجلها التاريخ.

وقد يربط الشاعر في حديثه بين العروبة والإسلام في القصيدة الواحدة؛ لأنهما مقومان أساسيان من مقومات الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر،

تلك الشخصية التي «تنتمي للعروبة في الأصل والجنس، وللإسلام في العقيدة الروحية»[15].

ويعتقد الشاعر أنه ما دام هذان المقوِّمان بخير فلن ترتد الجزائر فرنسية؛ لاختلاف جميع المقومات بين شخصية الشعب الجزائري، والشعب الفرنسي.

و«إسلاميات محمد العيد» مبثوثة في ديوانه، ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إن قصائد العيد لا تكاد تخلو واحدة منها من نفحة إسلامية، أو نزعة قومية، أو وطنية إلا نادراً.

وبِحَسْبي اقتطاف بعض النماذج تمثيلاً لما نحن بصدده من الحديث عن نضال الشاعر في سبيل الإسلام.

فمن تلك القصائد قصيدته: «هذيان آشيل»[16].

لقد كان ذلك الفرنسي حاقداً على الإسلام والمسلمين والقرآن الكريم الذي كان يقول عنه إنه كتاب مثير للحروب والفتن، وبسببه ناصب المسلمون أوروبا العداء.

وقد رد عليه ابن باديس رداً منطقياً مقنعاً جعل الشاعر محمد العيد يشيد بموقفه من ذلك الفرنسي الحاقد[17].

افتتح الشاعر قصيدته بقوله:

هيهات لا يعتري القرآن تبديل ... وإن تبدل توراة وإنجيل

قل للذين رموا هذا الكتاب بما ... لم يتفق معه شرح وتأويل

---

(15) قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، عبد الله ركيبي، (معهد البحوث والدراسات العربية)، القاهرة، 1970، ص: 68.

(16) هو (روبير آشيل) كتب سلسلة من المقالات في جريدة (لاديبيش) بقسنطينة ونشر رد ابن باديس عليه في مجلة الشهاب سنة 925 ـ 1926.

انظر: الشعر الجزائري، صالح خرفي، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) الجزائر، 1970، ص: 48 بالحاشية رقم (2).

(17) انظر الديوان، ص: 85.

فاعزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا في القول هيهات لا تجدي الأباطيل[18]

إن القرآن الكريم محفوظ من عند الله، ولكن التوراة والإنجيل دخلهما التحريف والتغيير وهذا شيء معروف.

ومهما ادعى المغرضون الحاقدون بالباطل على القرآن، فلن تجديهم أباطيلهم شيئاً. ويمضي العيد قائلاً:

آياته بهدى الإسلام ما برحت تهدي الممالك جيلاً بعده جيل
فآية ملؤها ذكرى وتبصرة وآية ملؤها حكم وتفصيل
كلامه الصدق لا مينٌ ولا كذبٌ وحكمُه الحق لا ميزٌ وتفضيل[19]

ويتابع الشاعر حديثه مستخدماً أسلوب الاستفهام التعجبي قائلاً:

ما بال «آشيل» في «الديبيش» يسخر من آيات مُحكَمِهِ لا كان آشيلُ؟!
ما بال «آشيل» يهذي في مقالته كحالم راعه في النوم تخييلُ؟
ما بال «آشيل» يزري المسلمين وهُمْ غر العرائك أنجاب بهاليلُ؟

ويمضي الشاعر محمد العيد في الرد على المستشرق الفرنسي «آشيل»، مشيراً إلى أن تضليله لن يفيده شيئاً، كما أشار إلى أن للحق حماة وأنصاراً منهم ابن باديس البطل العظيم الذي دمغت أقواله وحجته أقوال «آشيل»، ويختم هذه القصيدة الرائعة ـ حقاً ـ بقوله:

هذا ابن باديس يحمي الحق متئداً كذاك يتئد الشم الأماثيلُ
عبد الحميد رعاك الله من بطل ماضي الشكيمة لا يلويك تهويلُ
دفعت أقوال «آشيل» كما دفعتْ أبطالَ أبرهةَ الطيرُ الأبابيلُ
عليك مني وإن قصّرتُ في كلمي تحية ملؤها بشر وتهليل[20]

وهكذا كانت قصائد العيد تمثل صوت الحق الذي يعد الشاعر جندياً من

---

(18) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(19) نفس المصدر، ونفس الصفحة.
(20) ديوان محمد العيد، ص: 86.

جنوده المناضلين بالموقف الثابت، وبسلاح الكلمة التي تفعل فعل السحر في النفوس.

وفي مناسبة أخرى نجد الشاعر نفسه يخاطب وفود العلماء الجزائريين الذين كانوا يوفدون في شهر رمضان المبارك للوعظ والإرشاد والتعبئة الروحية في القطر الجزائري فيقول في قصيدته: «براك الله للذكرى حساما»:

بـراك الله لـلـذكـرى حـسـامـاً ... وهـل يـبـقـى حـسـام دون مَـشـق؟
فـبـشّـرْ بـالـهـدى فـي الأرض بشّـرْ ... وطـف جـنـبـاتـهـا غـربـاً لـشـرق
ومن رزق الـهـدى لـم يَخْشَ شيئاً ... فـلـيـس لـغـيـر خـالـقـه بِـرِقّ
رجـال الـعـلـم مـعـذرة فـمـن ذا ... إلـيـه سـواكـم بـالـبـث أُلـقـي[21]

ومن إسلامياته قصيدة: «هيهات يخزى المسلمون»[22].

وقد تحدث فيها عن الإسلام والمسلمين، والشرائع والأنبياء، والقرآن الكريم، والجزائر والجزائريين، وحثهم على أن يكونوا صامدين متآزرين، ودعا الله أن ينصرهم على أعدائهم، وحثهم على عدم اليأس فالأيام دول بين الناس...

افتتح هذه القصيدة بحمد الله القاهر فوق عباده فقال:

حمداً لـمـن فـي الـحـق غـاث وغـارا ... ولـوجـهـه عـنـت الـوجـوه صَـغـارا
سـبـحـانـه زجـر الـقـويّ عـن الأذى ... وحمى الضعيف من الأذى وأجارا[23]

وبعد اثني عشر بيتاً أشار إلى أن الإسلام الخالد قد ظلل الأقطار وأن الذين يحاولون النيل منه قد طاش سهمهم، ودعا الله أن يرفع الأكدار بعد طلب الغوث منه فقال:

هـيـهـاتُ يُـخْـزَى الـمـسـلـمـون ديـنُـهـم ... عَـلَـمُ الـخـلـود يـظـلـل الأقـطـارا

---

(21) نفس المصدر، ص: 83، 84.
(22) انظر القصيدة في الديوان، من ص: 112 ـ 114.
(23) نفس المصدر، ص: 112.

قولوا لمن راش النبال لصيده ألق النبال فإن صيدك طارا

يا غارة الله السريع غياثها خِفّي إلينا وارفعي الأكدارا

ثم أشار إلى حالة الجزائر والجزائريين التي يرثي لها، مذكراً إياهم بتاريخ أجدادهم المشرق فقال:

أجدادكم خطوا لكم خطط العلا ما بالكم لم تقتفوا الآثارا؟

كونوا على المتعزّزين أعزة كونوا على المتكبرين كبارا

كونوا الجبال الراسيات مناعة كونوا الحصون الحاميات ذمارا[24]

ويمضي الشاعر في قصيدته فيختمها بالدعوة إلى عدم اليأس؛ لأن الله القوي القاهر سيجعل بعد عُسرٍ يُسراً، وهذا دليل على عمق إيمانه بربه، وثقته في شعبه.

لا تيأسوا فالله قد جعل العلا دولا كما خلق الورى أطوارا

فلعل من بعد المهانة عزة ولعل من بعد العسار يسارا

وتأثر الشاعر بالقرآن واضح في أسلوبه شكلاً وتضميناً، في هذه القصيدة وفي غيرها من القصائد لمن تأمل ذلك.

وهذه القصيدة مشحونة بالعواطف الدينية والوطنية القوية التي كانت تجيش في نفس الشاعر وفي نفوس أبناء الجزائر في ذلك الوقت[25].

وللشاعر محمد العيد رائعة إسلامية أخرى ممثلة في قصيدته: «تحية المسلم الجديد»[26]. الذي تسمَّى بعد إسلامه بـ«علي سلمان» وهو فرنسي الأصل كان يدعى «بَنْوا» وقد هداه الله للإسلام بعد دراسة عميقة لمختلف الأديان.

«وقد انتهز محمد العيد إسلام هذا الفرنسي ليذكِّر بمكانة سلمان الفارسي،

---

(24) نفس المصدر، ص: 113.

(25) انظر: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، محمد مصايف (لا ط). 1972ف، ص: 18، 19.

(26) انظر القصيدة في الديوان، ص: 214 ـ 215.

وصهيب الرومي، وبلال الحبشي في الإسلام، ويندد بموقف بعض المواطنين الذين غرهم في عهده بريق الحضارة الغربية فتهاونوا في شأن دينهم، وتنكروا لكثير من تعاليمه»[27].

«وإن غيرة محمد العيد في هذه القصيدة لقوية، وابتهاجه بانتشار الإسلام لعظيم، وقوته في التعبير لمثالية...»[28].

افتتح الشاعر هذه القصيدة مخاطباً المسلم الجديد (علي سلمان) بهذا المطلع الجميل في شكله ومضمونه فقال:

زُفتْ إليك عرائس الإلهام ... فطرحتَ عنك بوالي الأوهام
وبحثتَ في الأديان بحثاً منصفاً ... فجنحتَ بعد البحث للإسلام
هذا هو الكنز الدفين كشفته ... ببصيرة نفذت وفكر سام[29]

وأشار بعد هذه الأبيات إلى صبر هذا المسلم الجديد جرَّاء إسلامه، وأنه قاوم الهوى واللوَّام ولم يبال بهم، وأنه بإسلامه هذا نصر الدين الإسلامي، وبذلك علا قومه رفعة ومكانة عند الله، فهو كسلمان الفارسي، وصيهب الرومي، وبلال الحبشي الذين فاقوا أقوامهم باعتناقهم الإسلام.

ولنستمع إليه قائلاً:

(بَنُوَا) لقد أبليت في حرب الهوى ... حسناً وما باليت باللُّوام
ونصرت في باريس دين محمد ... بصراحة برئَتْ من الإبهام
إني أراك علوت قومك رتبة ... وسلمت من شِرَك ومن إجرام
هذا هُدىً من قام مضطلعاً به ... أمَّ الرجال وشَمَّ كالأعلام
سلمانُ فاق الفرس أجمعهم به ... وصهيب فاز به على الأروام
وبلال ساد به على الأحباش ها ... دوَّى الأذان بمطرب الأنغام[30]

(27) فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، محمد مصايف، ص: 23، 24.
(28) نفس المرجع، ص: 23.
(29) الديوان، ص: 214.
(30) نفس المصدر، ص: 215.

كما أشار إلى ابتهاج المسلمين بأخيهم المسلم الجديد الذي سيكون جندياً مخلصاً من جنود الإسلام المنافحين عنه، والمبشرين به، وأن عليه واجباً نحو الإسلام، وأنّ الغرب لا يعترف بالحقيقة بل صارت مهضومة، فعليك أن تجلجل بها بكل قوة وشجاعة، وأن إسلام (بنوا) وهو الفرنسي الأصل حجة على أسرى العقول والمضلَّلِين الساقطين على شهواتهم صرعى كمن عكفوا على عبادة الأصنام، هذه المعاني التي ألمعتُ إليها جاءت في قوله في القصيدة نفسها:

(بَنْوَا) بنو الإسلام من أقطارهم ... حيَّوك بالترحيب والإعظام
أنت الفرنسي الحنيف فمرحبا ... بك من شقيق واجب الإكرام

إلى أن يقول:

(بَنْوَا) أمامك واجب فانهض به ... متقلداً ذكراك كالصمصام
إن الحقيقة أصبحت مهضومة ... في الغرب تحت مواطىء الأقدام
جلجلْ بها كالرعد غير مُجمجم ... وازْأَز بها غضبان كالضرغام
إسلام (بَنْوَا) حجة قامت على ... أسرى العقول مُضَلَّلِي الأفهام
المسلمين الساخرين بدينهم ... تبعاً لمن كفروا من الأعجام
الساقطين هوى على شهواتهم ... صرعى كمن عكفوا على الأصنام[31]

والعاطفة الدينية والدعوة إلى النضال في سبيل الإسلام والتنديد بمن خرجوا عن جادة الإسلام لا تحتاج إلى تعليق بأكثر مما سبقت الإشارة إليه.

«حقاً إنه لجميل هذا الشعر، وإنه لصدق ما وراءه صدق»[32] وكيف لا يكون هذا الشعر جميلاً من شاعر يجيد التفكير والتعبير وحسن التصوير عن مشاعره ومشاعر كل مسلم حريص على دينه ووطنه وأمته؟

ولعل في هذه النماذج إشارة كافية إلى أن محمد العيد هو شاعر الإسلام، وبحسبي الإشارة إلى بعض القصائد الأخرى التي تمثل نماذج لشعره الإسلامي،

---

(31) الديوان، ص: 215.

(32) فصول في النقد الجزائري، محمد مصايف، ص: 29.

والتي يمكن للقارىء الرجوع إليها في ديوان الشاعر، مثل: «أنشودة الوليد»[33].

و«يخلد الإسلام»[34] و«دعاك الأمل»[35] وغيرها من القصائد التي تندرج في إطار شعره الإسلامي.

4 ـ محمد العيد شاعر العروبة:

يبدو التركيز على الإسلام والعروبة في شعر محمد العيد بشكل واضح؛ إذا الإسلام والعروبة كأنهما وجهان لعملة واحدة، والحديث عنهما والدعوة إلى التشبث بهما يمثل ردة فعل على المستعمرين الفرنسيين الذين أرادوا القضاء على الشخصية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن له خصائصه ومقوماته الخاصة.

وفي ديوان الشاعر أبيات كثيرة يمجد فيها العروبة وأبطالها، ويدعو إلى وحدتها التي تمثل صخرة قوية أمام الاستعمار، ويذكر الروابط المختلفة التي تربط بين أبناء العروبة مهما تعددت ديارهم، وتناءت أقطارهم.

وهو يشعر شعوراً قومياً بقضايا العروبة التي كان يفرح لأفراحها، ويأسى لأتراحها، وفي ديوانه الخبر اليقين.

وكان يستغل أدنى مناسبة للحديث عن العروبة رابطاً بينها وبين الجزائر: فالآلام والآمال عند أبناء العروبة واحدة.

وها هي بعض النماذج التي تؤكد مدى حب الشاعر للعروبة، وحرصه على وحدتها وقوتها وارتباطها بالجزائر التي تعد قطراً من أقطار العروبة.

فمن قصيدته: «العروبة أمتنا الكبرى»[36] نقطف هذه الأبيات التي توحي بنزعته القومية، ومما جاء فيها قوله:

مـا نـحـن إلا إخـوة مـن أسـرة كرمت أرومتها وطاب المحتد

---

(33) الديوان، ص: 166 وما بعدها.

(34) نفس المصدر، ص: 176 وما بعدها.

(35) نفس المصدر، ص: 233 وما بعدها.

(36) انظر القصيدة في الديوان من ص: 226 ـ 230.

الـمـلـة الـسـمـحـاء آصـرة لـنـا فـوق الأواصـر والـعـروبـة مـولـد
هـيـهـات تـقـدر أن تـفـرقـنـا يـد والله يـجـمـع شـمـلـنـا ومـحـمـد
إن الـعـروبـة أُمُّـنـا الـكـبـرى الـتـي في الأمهات نظيرها لا يوجد[37]

ويمضي الشاعر في حديثه متحدثاً عن شجاعة العرب داعياً إلى الوحدة محيياً مصر ـ قلب العروبة النابض ـ والجزائر رمز البطولة والفداء فيقول:

نـبـني الـعـروبـة مـن جـديـد قـلـعـة مـن حـولـهـا قـصـف الـمـدافـع يُـرعـد
فَـلْـتَـحْـيَ وحـدتـنـا بـهـا فـي مـنـعـة ومـن الـمـحـيـط إلـى الـخـلـيـج تـمـدَّدُ
ولْـتَـحْـيَ مـصـر مـع الـجـزائـر فـي رضـا ومـحـبـة وصـداقـة تـتـأكـد
ولْـيَـحْـيَ شـعـبـانـا كـشـعـب واحـد وكـلاهـمـا مـتـقـرب مـتـودّد
ولْـيَـحْـيَ فـي ظـل الـعـروبـة وِدُّنـا مـلء الـقـلـوب وعـهـدنـا الـمـتـأبـد[38]

ويلاحظ القارىء احتفاء الجزائر ـ على لسان الشاعر ـ بمصر وبرئيسها السابق جمال عبد الناصر الذي زار مصر في (يونيو) 1963 فحياه الشاعر بقصيدة طويلة فيها تقدير كبير لجمال عبد الناصر ولغيره من أبطال العروبة قديماً وحديثاً، وفيها دعوة قوية لأمة العرب إلى أن تستيقظ من سباتها وتنهض إلى تحقيق ما تصبو إليه من مجد وسؤدد.

وعنوان القصيدة هو: «تحية شاعر إلى الرئيس جمال عبد الناصر»[39].

ومما جاء فيها قوله:

إن الـعـروبـة دوحـة لـم تـنـمـنـا إلا فـروعـاً لا تـلـيـن لـكـاسـرِ
مـهـمـا تَـسِـرْ بـاسـم الـعـروبـة خـطـوةً كـنَّـا بـجـنـبِـكَ فـي الـركـاب الـسـائـرِ
لا فـرق فـي أقـطـارنـا وديـارنـا مـا بـيـن مـصـري بـهـا وجـزائـري
بـشـرى الـعـروبـة بـابْـنِـهـا الـبـرِّ الـذي وصـل الـقـرارة بـالـولاء الـجـابـر[40]

(37) نفس المصدر، ص: 229.
(38) نفس المصدر، ص230.
(39) انظر القصيدة في الديوان، ص: 220 ـ 225.
(40) الديوان، ص: 220.

ويمضي في قصيدته مصوراً الترحيب الأخوي الصادق ببطل العروبة جمال عبد الناصر فيقول:

يا قائد العرب الذي عن فتحهم ... ورث الممالك كابراً عن كابر

إن الجزائرَ رحَّبت بك واحْتَفَت ... وأتتك في جمهورها المتباشر

خفَّت إليك جموعُها محشورة ... ما غَيرُ فرحتها لها من حاشر[41]

بل جعل طبيعة الجزائر الجميلة تعبر عن فرحها بمقدم رمز العروبة جمال عبد الناصر، فأبدع في التصوير والتعبير.

كما أشار فيها إلى ثورة الجزائر العربية التي قضت على المحتل الدخيل، وإلى أن العرب تنتظمهم قومية عربية واحدة من المحيط إلى الخليج، فهم يشعرون شعوراً واحداً بالآلام والآمال، وبهذا الشعور أشار الشاعر إلى مأساة فلسطين وخبث الصهاينة الغادرين.

وكعادته لم ينس الحديث عن الجزائر الحبيبة الثائرة المنتصرة التي صارت مزاراً لأبطال العروبة كعبد الناصر وغيره.

ويعود فيحرض أمة العرب على أن تسلك سبل العلا فيقول:

يا أمة العرب اسلكي سبل العلا ... ذُللاً وأبدي عن جناها الناضر

إن الحياة تجددت طاقاتها ... وتعددت ذراتها للخابر

قد آن أن تلدي النوابغ مثلما ... أنبغت منهم في الزمان الباكر[42]

وهكذا يشيد الشاعر محمد العيد بالعروبة وأمجادها وأبطالها وعلمائها، ويربط في حديثه عنها بين الجزائر التي تمثل قطراً عربياً وبين أقطار العروبة الأخرى، كما يربط ـ كذلك ـ بين الحاضر والماضي.

وفي هذه القصيدة يبدو الشاعر حريصاً كل الحرص على تحقيق وحدة الأمة العربية حتى تأخذ هذه الأمة المكانة الجديرة بها بين الأمم الأخرى.

---

(41) نفس المصدر، ص: 221.

(42) الديوان، ص: 225.

والشاعر محمد العيد يفرح لأفراح العروبة، ويأسى لأتراحها، فإذا استقل قطر من أقطارها كالسودان، أو ليبيا فرح كل الفرح بذلك الاستقلال ومَجَّدَه كل التمجيد.

ففي قصيدته: «استقلال ليبيا»[43].

يشيد الشاعر ببطولة الشعب العربي الليبي، وعلى رأسه البطل الشهيد عمر المختار متخلصاً بعد ذلك إلى الحديث عن الحرية التي رمز إليها بالحمامة الورقاء، وقد أجاد الشاعر في تصويره الحرية كل الإجادة.

ومن تلك القصيدة أذكر بعض الأبيات التي تمجد بطولة شعبنا العربي الليبي وشيخ شهدائه عمر المختار، وفيها يقول:

إن البطولة في الوغى عهدٌ لهم ... عهدت به الآباء للأطفال

ومضى بهم عمر الشهيد يقودهم ... للحرب ينأم نأمة الرئبال

خاض الجهاد مظفراً حتى انجلى ... عما انجلى والحرب ذات سجال

لقي الشهادة فيه شنقا مرهقاً ... تحت الأسنة موثقاً بحبال

كتب الإله له الشهادة مرة ... ليفوز منه بطعمها العسَّال[44]

ويمضي الشاعر في تمجيد البطل العربي الشهيد عمر المختار الذي لن تنساه الأجيال وهو أَجلُّ من أن يخلد بتمثال.

في كل قلب مؤمن ذكرى له ... أبدية قرنت بكل جلال

إن الشهيد يُجَلُّ عن تخليده ... بالنحت في نصب وفي تمثال[45]

ويندد بأعداء الشعب الليبي مشيراً إلى أنهم باءوا بالخيبة بفضل بطولة الشعب الليبي وصموده قائلاً:

أما الذين قضوا عليه بشنقه ... فجزاؤهم خزي مدى الأجيال

---

(43) انظر القصيدة في الديوان، ص: 348 وما بعدها.

(44) الديوان، ص: 349.

(45) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

وجـلاؤهـم مـتـحـسـريـن أذلـة　　مـتـعـثـريـن بـأقـذر الأذيـال
ذوقـوا عـواقـب بـغـيـكـم وتـجـرّعـوا　　خـيـبـاتـكـم يـا عـصـبـة الأنـذال[46]

وهكذا مجَّد الشاعر العربي محمد العيد نضال أبناء الشعب العربي الليبي الذي جرع أعداءه كؤوس الهزيمة، فصارت ليبيا حرة مستقلة ذات سيادة.

وما هذا الشعر الجميل إلاّ تعبير صادق عما يكنه الشاعر من مشاعر عربية صادقة نحو أبناء العروبة في كل مكان.

وفي قصيدته «استقلال السودان»[47] نجد الشاعر يعبر عن فرحته الغامرة باستقلال السودان، مشيداً بشجاعة أبنائه، وتخلُّقهم بالفضائل العربية الإسلامية، محذراً من الشقاق، داعياً إلى الوفاق، وربط الأواصر مع مصر العربية، لما في ذلك من قوة ومنعة.

ومما جاء في هذه القصيدة قوله:

فَـوزٌ سَـرَتْ بـحـديـثِـه الـرُّكـبـان　　فـالـشـرقُ مـغـتـبـطٌ بـه جَـذلانُ
والـسـمحةُ البيضاء تُعلن بِشْرَها　　ولـو ازدرت بـحـقـوقـهـا الأديـانُ
والـنـيـل يـجـري صـاخـبـاً ومـصـفـقـاً　　طـربـاً فـتـرقـص حـولـه الـشُّـطـآنُ
وبـنـوا الـعـروبـة يـهـتـفـون لـمَـركـبٍ　　فـي الـنـيـل أبـحَـرَ ركـبُـه الـعُـربـان
مـا أسـعـد الـسـودان بـاسـتـقـلالـه　　فـالـيـومَ يـرفـع رأسَـه الـسـودانُ[48]

وبعد أن أشار إلى النزعة الروحية لدى السودانيين، وإلى نضالهم وثورتهم الظافرة ومظاهر التطور المختلفة بفعل الثورة، عبر عن فرحة الجزائر باستقلال السودان على الرغم مما تعانيه.. وتساءل عن تحرير الجزائر وتقرير مصيرها وظفرها باستقلالها قائلاً:

مَـن مُـبـلـغ الـسـودان عـنـا أنـنـا　　شـيـع لـه لـشـعـورنـا خـلاَّن؟

(46) نفس المصدر، ص: 349، 350.
(47) انظر القصيدة في الديوان، ص: 354 وما بعدها.
(48) نفس المصدر، ونفس الصفحة.

نـتـبـادل الـقـبـلات بـاسـتـقـلالـه فـرحـاً وإن طـافـت بـنـا الأحـزان

متـسـائـلـيـن عـن الـجـزائـر هـل دنـا تـحـريـرُهـا أم حـظُّـهـا الـحـرمـان[49]؟

ومما سقته من نماذج شعرية ـ وهي قليلة ـ تبدو للقارىء النزعة القومية لدى الشاعر وتجاوبه مع أحداث العروبة في كل مكان، وبذلك كان محمد العيد شاعر العروبة حقاً وصدقاً.

5 ـ محمد العيد شاعر الوطنية:

يعد محمد العيد من شعراء الوطنية المخلصين، ومن أجل وطنيته تعرض لكل ما يتعرض له الوطنيون المخلصون الشجعان، فما لانت له قناة، وما ضعف وما استكان، بل ظل أكثر من أربعين سنة بلبلاً صدّاحاً يتغنى بحب وطنه وشعبه، ويحرض على الثورة من أجل تحرير وطنه الحبيب.

والوطنية هي «حب الوطن، والشعور نحوه بارتباط روحي، وهي نزعة اجتماعية تربط الفرد بالجماعة، وتجعله يحبها ويفتخر بها، ويعمل من أجلها، ويضحي في سبيلها»[50].

وهكذا كانت وطنية محمد العيد، كما تشهد بذلك مواقفه وفنه الذي عبر عن تلك المواقف والمشاعر الوطنية الفياضة.

وكيف لا يكون ذلك الشاعر الملتزم وطنياً وهو القائل:

بـلادي فـداك الـروح والله عـالـم عليك سلام خالص القصد سالم

يحييك مشتاق على القرب مشفق من البعد مشغوف بحبك هائم[51]

وهو يعد نفسه خادماً مطيعاً لبلاده الجزائر، وأخاً لكل جزائري، وعبر عن هذه العاطفة الوطنية بقوله:

وهـبـتـك روحـي يـا جـزائـر فـأمـري كـمـا شـئـت إنـي خـاضـع لـك خـادم

---

(49) المصدر نفسه، ص: 356.

(50) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث، محمد الصادق عفيفي، (دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع)، القاهرة، 1969، ص: 9.

(51) ديوان محمد العيد، ص: 135.

حماك ربيع لي وإن كان جاحماً عليَّ وهل يُصلي خليلك جاحم؟
وقرباك هم قرباي لست مباليا أعاريب هم في جنسهم أم أعاجم
فخذ من دمي يا ابن الجزائر إنني أخ لك في كل الحظوظ مقاسم[52]

ويمضي في هذه القصيدة التي صاغها تحت عنوان: «بلادي»[53]. داعياً إلى الثورة والجهاد والاستشهاد من أجل الجزائر الحبيبة منادياً بأعلى صوته في ذلك الحشد الكبير:

هلمَّ نعارك فالحياة معارك هلم نقاحم فالحياة مقاحم
هلم نُثر في المؤمنين جميعهم دويَّاً له مثل الرعود دمادم
هلم نبغ للّه ما ابتاع منهم ففي البيع أرباح لنا وغنائم
هلم بني قومي إلى المجد نُعلِه فنحن له منذ القديم دعائم[54]

ويعود فيحثّ على اليقظة والنهضة والمقاومة فيقول:

أراك أخي ما زلت وَسْنَانَ حالما تيقظْ إلى كم أنت وسْنان حالم؟
تيقظْ ففي دنياك أعظم نهضة تضيق بمعناها اللّغى والتراجم
وجاهد فإن الحر فيها مجاهد وقاوم فإن الحر فيها مقاوم

ولولا ذلك الشعور الوطني الصادق لما كانت هذه القصيدة الوطنية التي سمتْ مبنى ومعنى.

ومظاهر الوطنية عند الشاعر كثيرة ممثلة في حب الوطن وأهله، والإشادة به، والدعوة إلى تحريره، وإلى استنهاض أبنائه، وإلى نبذ الخلافات، وإلى التكتل والوحدة الوطنية وغيرها من المظاهر الأخرى التي تندرج في إطار الوطنية عند الشاعر محمد العيد، هذه المظاهر كلها تضمنتها قصائده الوطنية.

وفي قصيدة أخرى يعبر تعبيراً صادقاً عن العناء الذي تعانيه الجزائر المكبلة

(52) نفس المصدر، ص: 138، 139.
(53) انظر القصيدة في الديوان، من ص: 135 ـ 139.
(54) الديوان، ص: 137.

بأغلال الاستعمار الفرنسي فيدعو بقوة إلى تحطيم تلك الأغلال قائلاً:

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم ... فالعمر ساعات تمر عجالاً
الأسر طال بكم فطال شقاؤكم ... فُكُّوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضجَّ من المظالم فانشُدوا ... حرية تحميه واستقلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف ... حرٌ لنا عال ينير هلالا[55]

والحرية قضية وطنية دفعت الجزائر وغيرها من أبناء العروبة ثمنها غالياً، وكان شاعر الجزائر وطنياً مخلصاً شجاعاً، طالب وناضل من أجل الحرية وتحمل كل أذى في سبيل ذلك.

وكان يفصح أحياناً ويجمجم حيناً حسب المواقف والظروف التي كان يعيشها، ومن تعبيراته الرمزية الرائعة قوله:

ولقد شجت قلبي وهاجت عبرتي ... ورقاء في شرق بعيد عال
حمراء حُرّر جيدُها من طوقها ... في الوُرْق فهي عديمة الأمثال
هتفت فقمت مجاوباً لهتافها ... ولحنتُ عن قصد فقلت تعالي
شرقية في الطير أم غربية ... ما دمت واصلةً فلست أبالي
والَهْفَتَاه عليك حسنك فاتن ... وهواك ممنوع ووصلك غالي
من كان في العشاق باسمك ناطقا ... فكأنما هو ناطق بمحال
قد أحدق الرقباء والعذال بي ... ويلِي من الرقباء والعذال[56]

وما هذه الحمامة التي كان الشاعر يناجيها ويتشوق إلى وصالها الممنوع من قبل الاستعمار إلا الحرية فهي محبوبته حقاً.

وما الرقباء الذين ذكرهم الشاعر إلا عيون الاستعمار الفرنسي[57].

---

(55) نفس المصدر، ص: 339، وانظر: جوانب مضيئة من الشعر العربي، محمد عبد الغني حسن (مكتبة الأنجلو المصرية) 1972ف.

(56) الديوان، ص: 350.

(57) انظر: جوانب مضيئة من الشعر العربي، محمد عبد الغني حسن (مكتبة الأنجلو المصرية)، 1972، ص: 243، ومجلة «الثقافة» الجزائرية، السنة الخامسة، العدد 28، (8، 9) 1975، ص: 114.

وعلى الرغم من مراقبتهم الشديدة للشاعر فإنه كان يدعو إلى الحرية انطلاقاً من حبه لوطنه وشعبه وإيمانه بحقه في الحياة الحرة الكريمة.

ولعل القارىء الكريم بعد قراءة هذه الصفحات تتضح له مكانة محمد العيد شاعر الإسلام والعروبة والوطنية ـ رحمه الله ـ.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ديوان محمد العيد آل خليفة، (منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة البعث، قسنطينة، 1967ف.

ثانياً: المراجع

أ ـ الكتب:

- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، د. نور سلمان، (دار العلم للملايين)، بيروت ـ لبنان، ط1، 1980ف.
- تاريخ الشعر الجزائري الحديث، أحمد قبش، (لاط)، 1971ف.
- الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث، د. محمد الصادق عفيفي، (دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع)، القاهرة، 1969ف.
- جوانب مضيئة من الشعر العربي، محمد عبد الغني حسن، (مكتبة الأنجلو المصرية)، (لاط)، 1972ف.
- الشعر الجزائري، د. صالح خرفي، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) الجزائر، 1970ف.
- الشيخ عبد الحميد بن باديس، مجموعة من الأساتذة، سلسلة (نوابغ العرب) الكتاب رقم 14. (دار العودة)، بيروت، 1976ف.
- فصول في النقد الجزائري الحديث، د. محمد مصايف (لاط) 1972ف.
- في رحاب المغرب العربي، د. صالح خرفي، (دار الغرب الإسلامي)، بيروت ـ لبنان، ط1، 1985ف.

- قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، د. عبد الله ركيبي، (معهد البحوث والدراسات العربية)، القاهرة، 1970ف.
- محمد العيد آل خليفة، د. أبو القاسم سعد الله (دار المعارف بمصر) ط2، 1975ف.
- المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، د. نسيب نشاوي، (دمشق)، 1980ف.

ب ـ الدوريات:

- مجلة (الأصالة)، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، العدد (11) السنة الثانية، 1972ف.
- مجلة (الثقافة) تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، السنة الخامسة، العدد (28)، لسنة 1975ف.
- مجلة (الشهاب)، لمنشئها عبد الحميد بن باديس، جـ: 4 المجلد: 15، لسنة 1938ف.